

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المستبعدة وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك { إذا كنا عظاما ورفاتا } أي ترابا قاله مجاهد وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا عدما وصرنا بلينا بعدما القيامة يوم أي { جديدا خلقا لمبعوثون أنا } غبارا : هما نذكر كما أخبر عنهم في الموضع الآخر { يقولون أنا لمردودون في الحافرة * إذا كنا عظاما نخرة * قالوا تلك إذا كرة خاسرة } وقوله تعالى : { وضرب لنا مثلا ونسي خلقه } الايتين فأمر الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم فقال : { قل كونوا حجارة أو حديدا } إذ هما أشد امتناعا من العظام والرفات { أو خلقا مما يكبر في صدوركم } قال ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد : سألت ابن عباس عن ذلك فقال : هو الموت وروى عطية عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية : لو كنتم موتى لأحييتكم وكذا قال سعيد بن جبير وأبو صالح والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراد .

وقد ذكر ابن جرير ههنا حديثا [وجاء بالموت يوم القيامة وكأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ثم يقال : يا أهل النار أتعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت] وقال مجاهد { أو خلقا مما يكبر في صدوركم } يعني السماء والأرض والجبال وفي رواية : ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم وقد وقع في التفسير المروي عن الإمام مالك عن الزهري في قوله : { أو خلقا مما يكبر في صدوركم } قال النبي صلى الله عليه وسلم : قال مالك ويقولون هو الموت .

وقوله تعالى : { فسيقولون من يعيدنا } أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر شديدا { قل الذي فطركم أول مرة } أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئا مذكورا ثم صرتم بشرا تنتشرون فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال { وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه } الآية وقوله تعالى : { ينغضون إليك رؤوسهم } قال ابن عباس وقتادة : يحركونها استهزاء وهذا الذي قاله هو الذي تعرفه العرب من لغاتها لأن إنغاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى أو من أعلى إلى أسفل ومنه قيل للظلم وهو ولد النعمة نغض لأنه إذا مشى عجل بمشيته وحرك رأسه ويقال : نفصت سنه إذا تحركت وارتفعت من منبتها وقال الرازي :

(ونغضت من هرم أسنانها ...) .

وقوله : { ويقولون متى هو } إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك كما قال تعالى : { ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين } وقال تعالى : { يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها } وقوله : { قل عسى أن يكون قريباً } أي احذروا ذلك فإنه قريب سيأتيكم لا محالة فكل ما هو آت آت وقوله تعالى : { يوم يدعوكم } أي الرب تبارك وتعالى : { إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون } أي إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع بل كما قال تعالى : { وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر } { إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون } وقوله { فإنما هي زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة } أي إنما هو أمر واحد بانتهاز فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها كما قال تعالى : { يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده } أي تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : فتستجيبون بحمده أي بأمره وكذا قال ابن جريج : وقال قتادة بمعرفته وطاعته . وقال بعضهم { يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده } أي وله الحمد في كل حال وقد جاء في الحديث [ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم كأنهم بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون لا إله إلا الله] وفي رواية يقولون { الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن } وسيأتي في سورة فاطر وقوله تعالى : { وتظنون } أي يوم تقومون من قبوركم { إن لبئثم } أي في الدار الدنيا { إلا قليلاً } وكقوله تعالى : { كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها } وقال تعالى : { يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبئثم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقول أمثلهم طريقة إن لبئثم إلا يوماً } وقال تعالى : { ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون } وقال تعالى : { قال كم لبئثم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبئثم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون }